

محاضرات

الأدب العربي في الأندلس

الفرقة الأولى
قسم اللغات الشرقية وآدابها

أ.م.د. مروة شحاته
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
جامعة دمنهور

المحاضرة : الرابعة

المادة : الأدب العربي في الأندلس

الفرقة : الأولى

الموضوع : الموشحات الأندلسية

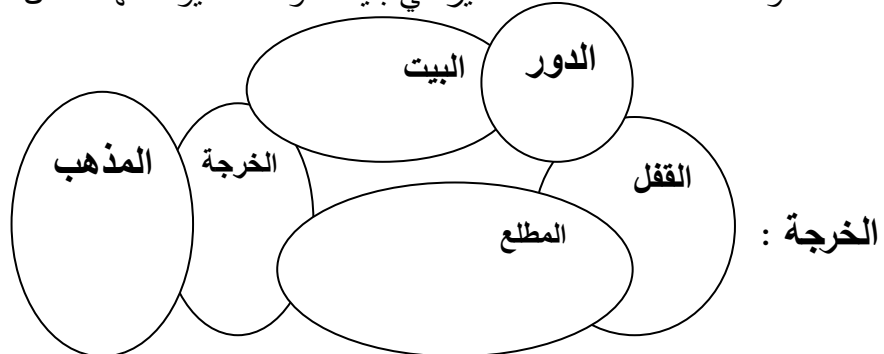
الموشح فن جديد من فنون الشعر العربي ، وقد عرّفه ابن سناء الملّك في كتابه (دار الطراز) بقوله: « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص ، وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال ، وخمسة أبيات ، ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ، ويقال له الأفرع ، فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأفرع ما ابتدئ فيه بالأبيات » .

وهي فن مفعم بالحيوية والعذوبة والجمال ؛ إنها نمط خاص في بناء القصيدة العربية استحدثه الأندلسيون في القرن الثالث الهجري . إن سبب اختراع الموشحات في الأندلس ما تولد في النفوس من رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة في الكلام ، وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث الشعراء على حسب أهوائهم ، وقد سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام في بحبوحة اللهو والطرب و الرقص ، وإفشاء الشعر بطريقة خفيفة على النفس ، وقد وجدوا ذلك أدعى إلى تحريك النفوس . والموشحات عمل غنائي بالدرجة الأولى ، وهى تمتاز عن القصيدة برقة ألفاظها وعذوبتها وسهولتها ؛ وذلك لأنها نُظمت في الأصل لكي تُغنى و « لمّا كانت الموشحات قد وضعت أساساً من أجل الغناء ، فمن الطبيعي أن يختار لها الوشاحون لغة سهلة تتناسب الغناء ، وهذا ما حدث بالفعل فقد رقت لغة الموشحات ، وابتعدت عن الجزالة والتعقيد ، وجنحت إلى البساطة والسهولة » .

وقد أجمع مؤرخو الموشحات على أن من أقوى الأدلة على أن الموشحات إنما أُخترعت للغناء « أن الدور الذي يسبق الخرجة في الموشحات الغنائية غالباً ما يتضمن اللفظ (شدا) أو (أنشد) أو (غنى) » .

والموشح في بنائه يتركب من أجزاء معينة ، تواضع عليها الوشاحون ، والتزموها في صنع موشحاتهم ، وأعطوها مصطلحات عُرفت بها ، وهذه الأجزاء هى: « المطلع أو المذهب ، والفعل ، والخرجة ، والغصن ، والدور ، والسّمط ، والبيت » .

وقد تداخلت مصطلحات كثيرة في بنية الموشحة ، يُوضّحها الشكل الآتي :



الخرجة هي القفل الأخير من الموشح ، « ربما قصدوا بالخروج فيه أكثر من معنى ، إما لأن الوشاح يخرج فيه من الفصحى إلى العامية أو الأعجمية ، أو لأنه يخرج فيه من لفظه إلى لفظ غيره ، أو لأنه يخرج فيه من المدح إلى الغزل في المدائح الخاصة ، أو لعله من اصطلاح المغنين ؛ إذ يلونون فيه اللحن تلويحاً خاصاً يؤذن بختام الموشح » .
وهي عند الوشاحين أهم جزء في الموشح ، فمقامها عندهم مقام المطلع في القصيدة العربية ؛ ولذلك يخصونها بعناية فائقة .

والخرجة ثلاثة أنواع : « خرجة معربة الألفاظ فصيحة ، وخرجة ملحونة الألفاظ عامية ، وخرجة أعجمية الألفاظ ، والخرجتان الأخيرتان تكثران في الموشحات التي يُتغنَّى بها ، وكأن القصد منهما هو الإشعار عند وصول المغنى إليهما بأن هذا هو ختام الموشح ، أما الخرجة العربية الفصيحة فتتميز بها الموشحات الشعرية التي تقال في الغزل أو المدح أو ما أشبه ذلك » .

ويفضل الوشاحون أن تكون الخرجة معبرة عن المجون ، وأن تُكْتَب باللهجة العامية ، بل أن تأتي أقرب ما تكون إلى لغة الأفاقين واللصوص والرعاع ، وذلك على سبيل الظرف والطرافة .

وقد تنوعت المصادر التي استقى منها الوشاحون خرجاتهم العامية ، « فمنهم من كان يخرعها وينظمها بألفاظه ، ومنهم من كان يأخذها من الأغاني الشعبية المنتشرة في أنحاء الأندلس أو من الأغاني التي تنشدها النساء في البيوت ، أو من الموشحات المشهورة » .
ومن أمثلة الخرجة المعربة الفصيحة عند ابن الصباغ قوله :

وَكُلُّ رَأْيٍ مُسَدَّدٌ وَكُلُّ أَمْرٍ مُرَشَّدٌ

ويبدو أن هذه الخرجة الفصيحة ليست مستعارة ، ولعلها من تأليف ابن الصباغ . وهذا مثال آخر للخرجة المعربة الفصيحة ، يقول :

أَشْدُو المَطَايَا السَّوَابِقُ مُرَمِّمًا عِنْدَ المَقَامِ
تَغُرُّ الزَّمَانَ المُوَافِقُ حَيَّاكَ مِنْهُ بِابْتِسَامِ

وقد اتسمت لغة الموشحات في الأندلس في عصر الموحدين بالبعد عن التعقيد والجزالة ، ونضرب مثلاً لذلك قول ابن الصباغ :

يَا مَنْزِلَ الغَزَالِ حُيِّتَ مَنْزِلًا
فَمَا أَنَا بِسَالٍ عَنْهُ وَإِنْ سَلَا

فنحن نلاحظ أن هذه الخرجة تلتزم باللغة الفصحى ، ومع ذلك تبتعد عن التعقيد ، وتميل إلى البساطة والسهولة .

وتجدر الإشارة إلى أن الخرجات العامية هي أكثر أنواع الخرجات وروداً عند ابن الصباغ ، وقد علل فوزي عيسى انتشار الخرجات العامية في موشحات الموحدين فقال : « تمثل الخرجة (العامية) نسبة كبيرة في موشحات الموحدين... ويرجع ذلك إلى انتشار اللهجات المحلية التي زاحمت الفصحى ، وعاشت بجانبها ، وتخطب بها الأندلسيون ، وعبروا بها عن حاجاتهم اليومية ، ونظموا فيها أغانيهم الشعبية ، ورددوها في حفلاتهم وأعراسهم وأعيادهم » .

ومن أمثلة الخرجة العامية عند ابن الصباغ قوله :

قَدْ بَلَيْنَا وَابْتَلَيْنَا وَاشْ يَقُول النَّاسُ فِينَا
قُمْ بِنَا يَا نُورَ عَيْنِي نَجْعَلُ الشَّكَّ يَقِينَا

ولكن ما نريد أن نوضحه الآن « أن دارسي الأدب متفقون على عدم جواز استعمال العامية في الموشحة » .

ومن أمثلة الخرجة العامية عند ابن الصباغ قوله :

لَيْتَنِي رَمَلَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ يَا ابْنِي أَوْ حُلُومِ
وَتَرَكْتُ عَيْنِي حِينَ تَعْدُو سَحَرِ لِبِلَادِ الرُّومِ

ولا نجد خرجة أعجمية عند ابن الصباغ ، وهذا يتفق مع رأي فوزي عيسى : حيث يقول :
« لاحظنا أن موشحات التصوف والزهد - على الرغم من كثرتها - تخلو تمامًا من الخرجات الأعجمية ، وقد يرجع ذلك إلى أن أكثرها نُظِمَ في المشرق ، ومن ناحية أخرى قد يكون للعامل الديني أثر في تجنب الوشاحين لهذه الخرجات ، إما بدفع الانتماء والتعصب الديني ، وإما لأن في ذلك خروجًا على قاعدة التناسب بين الموشحة وطبيعة المقام العام ، حيث ارتبطت الخرجات الأعجمية بالغزل والتماجن ، وهذا مما لا يتناسب مع جلال الموضوع الديني » .

وقد « شاع اقتباس الخرجات بين وشاحي الموحدين بصورة ملحوظة ، ولا سيما في الموشحات الدينية » ، وقد أكثر ابن الصباغ من اقتباس خرجات الموشحات المشهورة في عصره .

ومن موشحات الأعشى التطيلي (ت ٥٢٥هـ) الغزلية :

ضَا حِكْ عَنْ جُمَانٍ سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ ضَا قَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهُ صَدْرِي
أَهْ مِمَّا أَجِدُ شَفَّ نِي مَا أَجِدُ
قَامَ بِي وَقَعْدُ بَاطِشٌ مُتَّ دُ
كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ قَالَ لِي أَيْنَ قَدْ
وَأَنْتَنِي خُوطَ بَانَ ذَا مَهَرٍّ نَضِرِ عَابِثُهُ يَدَانِ لِلصَّبَا وَالْقَطْرِ
لَيْسَ لِي مِنْكَ بُدْ خُذْ فُؤَادِي عَنْ يَدِ
لَمْ تَدْعَ لِي جَلْدُ غَيْرَ أَنِّي أَجْهَدُ
مُكَرَّعٌ مِنْ شَهْدُ وَاشْتِيَاقِي يَشْهَدُ
مَا لَبِنْتَ الدَّنَانَ وَلِذَاكَ التَّغَرِ أَيْنَ مُحْيَا الزَّمَانِ مِنْ حُمَيَّا الْجَمْرِ

ونسوق الآن مثالاً لموشحة زهدية لابن الصباغ ، وفيها يقول:

نَفْسُكَ إِنْ أَرَدْتَ تَنْفَعْ تُبْ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجَعْ

جُمِعَتْ فِيكَ الْعُيُوبُ
كَثُرَتْ مِنْكَ الذُّنُوبُ
قَدْ دَعَا بِكَ الْمَشِيبُ

وَأَرَاكَ لَيْسَ تَسْمَعُ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

زُخْرُفُ الدُّنْيَا غُرُورٌ
وَعَدَا عَنْهُ الْمَسِيرُ
لَيْسَ يَنْفَعُ السُّرُورُ

مَنْ عَدَا فِيهَا مَرْفَعُ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

لَيْسَ لِلدُّنْيَا دَوَامٌ
لَا وَلَا فِيهَا مَقَامٌ
غَرَّ أَهْلِيهَا غَمَامٌ

عَنْ قَرِيبٍ يَنْقَشُ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

قَدَّمَ الْإِحْسَانَ فِيهَا
وَلْتَكُنْ عَنْهَا نَزِيهًا
فِي عَدِ تَكُنْ وَجِيهًا

بِالْيَسِيرِ مِنْهَا فَافْتَحْ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

يَا غَفُولًا يَا جَهُولًا
لِلنَّجَا اتَّخِذْ سَبِيلًا
وَأَسْكُبِ الدَّمَاعَ الْهَمُولًا

فَهُمُولُ الدَّمَاعِ يَنْفَعُ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

اشْتَغَلْتَ بِالْمُحَالِ
لَوْ بَنَيْتَ لِلْمَالِ
قَصَرَ عِزٍّ فِي ظِلَالِ

لَحَوَيْتَ الْعِزَّ أَجْمَعُ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

سَلِّمِ الْأَمْرَ إِلَيْهِ
وَأَجْعَلِ التَّكْلَا عَلَيْهِ
وَابْتَغِ الْفَضْلَ لَدَيْهِ

وَالْيَهْ الْأَمْرَ فَارْفَعْ

تُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجِعْ

بِمُحَمَّدٍ تُوَمِّنُ
فِي الَّذِي نَوَيْتَ تَسْأَلُ

فَهُوَ خَيْرٌ مِّنْ يُؤْمَلُ

وَهُوَ فِي الدُّنُوبِ يَنْفَعُ ثُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجَعُ

تبدأ هذه الموشحة بالمطلع أو المذهب (القفل الأول) ، وهو مكون من سمطين ، وقافيته العين الساكنة .

ويجيء بعده الدور ، وهو مكون من ثلاثة أغصان ، متحدة فيما بينها في القافية ، وعدد الأجزاء ، ويشترط أن تُخَالَفَ المَطْلَعُ والأَقْفَالُ في القافية .

ويليه القفل الثاني ، وهو مكون من سمطين ، وقافيته العين الساكنة .

ومفهوم البيت في الموشحة يختلف عن مفهوم البيت في القصيدة التقليدية ؛ فالبيت في الموشحة يتكون من الدور والقفل الذي يليه مُجْتَمِعِينَ .

والغُصْنُ اسم اصطلاحي لكل شطر من أشطر الدور .

والسَّمْطُ اسم اصطلاحي لكل شطر من أشطر المطلع أو الأقفال ، وهو مُوَحَّدُ القَافِيَةِ في الموشحة كلها .

وقد كرر الشاعر هنا السمت الثاني من القفل في كُلِّ المَوْشَحَةِ ، وذكره في مطلع الموشحة ، وهو قوله : (ثُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجَعُ) ، وهذا من جديد ابن الصباغ ، ولم نجده عنده في موشحات أخرى ، كما لم نجده - فيما أعلم - عند غيره من الوشّاحين .

والخرجة ثَمَائِلُ المطلع والأقفال في الوزن والقافية وعدد الأجزاء ، وكما نرى اتَّحَدَتْ في الوزن والقافية (ع) وعدد الأجزاء (سمطين) .

وهي قوله :

ثُبُّ إِلَى مَوْلَاكَ وَارْجَعُ

وَهُوَ فِي الدُّنُوبِ يَنْفَعُ

وهي القفل الأخير من الموشح .